سورة الإخلاص

مكية وهي خمس آيات مع البسملة

هذه السورة مكية عند ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، بينما يرى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي أنها مدنية، إلا أن هناك قولا لابن عباس أنها مكية. (فتح البيان)

وقال السيوطي في "الإتقان" أن بعض المفسرين قد حكموا بسبب هذه الروايات المتباينة أن سورة الإخلاص نزلت مرتين، مرة في مكة وأخرى في المدينة، ويرجّح السيوطي أن تكون مدَنية. أما نحن فنرى أنها نزلت مرتين، ذلك أن ابن مسعود من أوائل الصحابة، وله مكانة عالية في التفسير، ولا يمكن رفض روايته من دون دليل. أما ابن عباس فقد بلغ أَشُدَّه في المدينة، وليس علْمه عن أوائل السور نزولاً إلا سماعيا، غير أن له أيضا مكانته، فلا يمكن ردّ قوله من دون دليل، لذا نتفق مع المفسرين الذين يرون أن سورة الإخلاص نزلت مرتين، بدلاً من أن نرفض قول صحابي من دون دليل قويّ.

أما القسيس "ويري" فقال أن "وليام موير" يرى أن سورة الإخلاص هي من أوائل السور نزولاً، بينما يرى "نولدكه" أنها نزلت في السنة الرابعة. ويرى "ويري" أن رأي "وليام موير" أقرب إلى الصحة، لأن أسلوبها يدل على أنها من أوائل السور نزولا. (تفسير القرآن للقس "ويري")

لقد قلت مرارًا إن المفسرين يحدّدون زمن نزول السور بناءً على الروايات، أما المستشرقون فلا يبنون رأيهم على شهادة التاريخ، بل على مضمون السور وأسلوب عبارتها. والحق أنهم لا يقدرون على فهم مضامين القرآن الكريم فهما صحيحا، كما أنه ليس لديهم إلمام كاف بالعربية يمكّنهم من أن يستنتجوا من أسلوب

عبارات الآيات استنتاجًا سليما. إن معرفتهم بالعربية ضئيلة جدًا، فادعاؤهم بتحديد زمن نزول سور القرآن بناءً على أسلوبها ليس إلا مغالطة وتزييفا.

أسماؤها: لقد وردت في التفاسير أسماء عديدة لهذه السورة، تدلّ على ما فيها من مفاهيم عديدة. وهذه الأسماء -كما ذكرها الرازي في تفسيره- هي:

١: سورة التفريد: لأنها تركّز على أن الله أحد، وتفنّد الثالوث وغيره من العقائد الباطلة.

٢: سورة التجريد: لأنها تقول أن لا ندّ لله تعالى.

٣: سورة التوحيد: إذ إنها تبيّن وحدانية الله تعالى بيانًا لا مثيل له في أي كتاب آخر.

٤: سورة الإخلاص: لأنها تزوّد الإنسان بالإخلاص وتنشئ وتوطد علاقته بالله تعالى.

٥: سورة النجاة: لأن من أيقن بالله الأحد نال النجاة.

٦: سورة الولاية: لأنها تزود الإنسان بالعلم الكامل والعمل والمعرفة، فتوصله إلى درجة الولاية.

٧: سورة المعرفة: لأنها تساعد على معرفة الله، فعن جابر أن رجلا صلّى فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال النبي ﷺ: إن هذا عبدٌ عرَف ربه، فسميت لذلك سورة المعرفة.

٨: سورة الجَمال: ورد في الحديث أن الله جميل يحب الجمال، فسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فقال: أحدٌ صمدٌ لم يلد و لم يولد.

٩: سورة المقَشْقِشة: أي المبرِئة من المرض. تقول العرب: تقَشْقَشَ المريض عما به: أي شُفِيَ. وسميت بذلك لأنها تبرِئ العبد من الشرك والنفاق، وتجعله عبدًا خالصا.

١٠: سورة المعوِّذة: ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ دخل على عثمان بن مظعون وقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وسورة الفلق وسورة الناس، ونفخ عليه، ثم أمره أن يستعيذ بالله بها.

١١: سورة الصمد: لأنها تذكُر صفة الله الصمد.. ومعناه: من تحتاج إليه كل ذرة من الكون.

١٢: سورة الأساس: قال رسول الله ﷺ: أُسِّست السموات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وهذا يعني أن عقيدة الثالوث سببٌ لدمار السماوات والأرض، كما قال الله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾(مريم: ٩١-٩٢). أو فيه إشارة إلى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٣)، فكأن عقيدة التوحيد أساس لعمران هذا الكون.

١٣: سورة المانعة: لأنها تنجي من عذاب القبر، فعن ابن عباس أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ حين عرج به: أعطيتُك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران.. أي أن مَن تمسّكَ بالتوحيد الخالص لم تمسّه النار.

١٤: سورة المحضِرة: لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت.

١٥: سورة البراءة: أي التي تبرئ من النار والشرك، ؟لأنه روي أنه ﷺ رأى رجلا يقرأ هذه السورة فقال: أمّا هذا فقد برئ من الشرك، وقال ﷺ: مَن قرأ سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ مئة مرة في صلاة أو في غيرها كُتبتْ له براءةٌ من النار.

١٦: سورة المذكِّرة: لأنها تذكِّر العبد خالص التوحيد.

١٧: سورة النور: لأن رسول الله ﷺ قال: إن لكل شيء نورا، ونور القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

١٨: سورة الأمان: لأن رسول الله ﷺ قال: إن مَن آمن بالتوحيد فكأنه دخل الحصن. فلأن هذه السورة تركز على توحيد البارئ تعالى، فهي أمان من العذاب.

١٩: سورة المنفِّرة: لأن الشيطان ينفر عند قراءتها.

فضائلها:

لقد اعتبر النبي ﷺ هذه السورة تساوي ثُلُثَ القرآن، فقال: مَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن. وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن. (الدر المنثور، وكنز العمال وفتح القدير، وتفسير الرازي،)

الواضح أن هذا لا يعني أنها تساوي ثلث القرآن حجمًا، إنما هذا إشارةٌ إلى أهمية مواضيعها. يتضح من دراسة القرآن الكريم والحديث أن هناك فتنتين تظهران في الزمن الأخير؛ فتنة الدجال وفتنة يأجوج ومأجوج، وكلتاهما ستحاول القضاء على الإسلام، واحدة بعد الأخرى. فإحداهما تدعو إلى ثلاثة آلهة؛ الإله الأب والإله الابن والإله الروح القدس، بدلاً من الإله الواحد، والأخرى تدعو إلى الإلحاد والدهرية. وقد قام القرآن الكريم بتفنيد العقيدتين وتبيان العقائد الصحيحة، وهو مليء بحمد الإله الأب، ويعلن أن الإله الأب هو الرب وهو الإله الأحد، وليس هناك أي إله آخر باسم الإله روح القدس والإله الابن. فالقرآن الكريم يرسي ألوهية الإله الأب، ويبطل ألوهية الإله الابن أو الإله الروح القدس. ولما كان ثلث القرآن قد نزل دعمًا لعقيدة ألوهية الإله الأب، فتبين أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. الحق أن القرآن الكريم قد جاء لإثبات توحيد البارئ وتفنيد العقائد الباطلة، ولما كانت هذه السورة قد أبطلت العقائد الزائفة وبيّنت حقيقة التوحيد بكلمات جامعة مانعة، فقد عدلت ثلث القرآن، بل صارت مثله. فثبت أن قول النبي ﷺ إنها تعدل ثلث القرآن ليس مبالغا فيه، إنما يبين أهمية مضمونها، ولذلك سماها النبي ﷺ أعظم سور القرآن الكريم. (روح المعاني)

ورد في الروايات أن سبعين ألفا من الملائكة نزلت مع هذه السورة (روح البيان). وفي هذا أيضا دليلٌ على أهمية موضوع هذه السورة.

وليكن معلومًا أن نزول الملائكة مع بعض السور لحراستها لا يراد منه حراستها وقت نزولها، بل حراستها بعد نزولها؛ ذلك أن كل سورة تحتوي على موضوع معين، وتتضمن أحيانًا أنباءً يكون في تحقُّقُها دليل على صدق السورة، وتتعلق هذه الأنباء بالتغيرات الطبيعية حينًا، وبأعمال الناس حينًا، والأنباء المتعلقة بالناس تكون بالغة الأهمية من حيث إن القوم الذين تنذرهم هذه الأنباء بنزول العذاب عليهم يسعون جاهدين للحيلولة دون تحققها، ولأن الظروف المادية لا تكون مواتية لتحقّقها في أغلب الأحيان إلا أن يهيئ الله الأسباب من الغيب، فلذلك يأمر الله تعالى ملائكته المسخَّرين لتدبير شتى أمور الكون أن يهيئوا الأسباب لتحقيقها كما أراد. لا شك أن سورة الإخلاص لا تحتوي على أي نبوءة، ولكنها تتحدث عن توحيد البارئ تعالى، وكان من المقدر ظهور فتنتين خطيرتين ضد التوحيد الإلهي في الزمن الأخير ما كان بوسع الدول الإسلامية التصدي لهما والقضاء عليهما من دون نصرة الملائكة؛ فلذلك أمر الله تعالى سبعين ألف مَلَكٍ بحماية توحيده، حتى إذا هجمت هاتان الفتنتان (الدجال، ويأجوج ومأجوج) على توحيد البارئ بكل عدّتهما وعتادهما، نزلت ملائكة السماء للقضاء عليهما وإقامة التوحيد واستئصال الشرك والدهرية من العالم، ليقوم ملكوت الله في الأرض كما هو قائم في السماء.

ومما ورد عن فضائل هذه السورة ما أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قُباء، وكان كلما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة، قرَأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أولاً ثم قرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه، فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تُجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تَدَعَها وتقرأ بسورة أخرى. قال: ما أنا بتارِكِها وإنْ أحببتم أن أؤمكم بها فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرونه أفضلَهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبرَ، فقال: يا فلان، ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في

كل ركعة؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبّها. فقال رسول الله ﷺ: إن حُبَّها أدخلَك الجنة (القرطبي، وفتح البيان).

لقد تبين من قول الرسول ﷺ أن المرء إذا تمسك بالتوحيد الخالص وتوكل عليه تعالى حقًّا، دخل الجنة.

كذلك ورد في رواية أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقرَ فقال: إذا دخلتَ بيتك فسلِّمْ إنْ كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلِّمْ على نفسك واقرأْ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة. ففعَل الرجل ذلك، فأدرَّ الله عليه رزقًا حتى أفاض على جيرانه. (روح البيان)

الحق أنه إذا علِم المرء أن هناك إلهًا قادرًا تمام القدرة على أن يبارك في أعماله، فإنه عليه يتوكل وإليه ينيب، وإذا اجتمع الجهد والدعاء زالت المشاكل. فهذه الرواية تعلِّمنا الاجتهاد والتوكل والدعاء.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ... يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ (أخرجه البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن الأربعة).

لقد نبّه النبي ﷺ بقراءة هذه السور معًا والدعاء بها إلى أن هناك اشتراكًا عميقًا بين هذه السور الثلاث الواردة في آخر المصحف؛ فسورة الإخلاص دليل على التوحيد الكامل، أما المعوذتان فتشتملان على الأدعية، والواضح أن الإنسان إذا علم أن هناك إلهًا قادرًا على سدّ حاجاته كلها وإعطائه كل خير وحمايته من كل شرّ، فلا بد أن يتوجه إليه بالدعاء. فمثلا إذا حاول كلبٌ شرس الهجومَ عليك، فلا تستطيع أن تتخلص منه إلا إذا عرفتَ صاحبه، فإذا علمتَه دعوتَه بأن يمنع كلبه، كذلك إذا علِمنا أن هناك إلهًا كل أمورنا منوطة به، وهو قادر على سد حاجاتنا كلها، فلا بد أن ترغب قلوبنا في دعائه تلقائيا. فثبت أن هناك ترتيبا طبيعيا في هذه السور الثلاث، فسورة الإخلاص تخبرنا عن الإله القادر، وسورة الفلق تعلِّمنا أن

ندعو الله تعالى بأن كلّ مخلوق في قبضتك، فنَجِّنا من شرّ كل شيء. والواضح أن الإنسان لا يستطيع أن يعدّد كل الأشياء التي يريد أن يحميه الله من شرورها. خُذْ مثلا المرض، فهناك آلاف الأنواع من الأمراض، بل إن الصداع وحده أنواع كثيرة لا يعرف الأطباء كُنْهَ كثير منها؛ إذ لو علموا لعالجوها أيضا. كذلك الحمّى أنواع كثيرة، ولكن لا يعرف الأطباء كثيرا منها، إذ لو علموا كل أنواعها لتمكنوا من علاجها. كان الطبيب في الماضي يقول لك إن هذه حمى الملاريا مثلاً، لكن البحوث الطبية قد كشفت الآن أن الملاريا أيضًا أنواع كثيرة، والبعوض الذي يسبب الملاريا أيضا صنوف كثيرة؛ فما دام الأطباء لا يستطيعون علاج أنواع كثيرة من الحمى، فهذا يعني أنهم لم يكتشفوا أنواعا كثيرة منها (الموسوعة البريطانية تحت: Malaria). أما أطباء العلاج بالمثل (الهوميوباثي) فيقولون إن الحمى تختلف من شخص إلى آخر، فحمّى زيد ليست كحمى بكر، وأن المصاب بالملاريا يختلف مرضه بها في الصباح عنه في المساء، بل يقولون إنه إذا أكل الخضار فتصبح الملاريا عنده مِن غير النوع الذي يصيبه إذا أكل الكباب. فثبت أن الإحاطة بالأمراض بل بأي شيءٍ مستحيلٌ، ولذلك أمرنا الله تعالى في سورة الفلق أن ندعوه بأن لا علم لنا بكل الأشياء، فاحمِنا من كل شرّ كان. أما سورة الناس التي تلي الفلق، فلم يأمرنا الله فيها بأن ندعوه أو نستعيذ به من شر زيد أو بكر، بل أمرنا بالاستعاذة من شر الجميع من قويّ أو مسئول أو دولة. ولكن لا يمكن أن ينبع هذا الدعاء من القلب إلا إذا كان المرء مؤمنا بالله الأحد. فثبت أن هناك علاقة قوية بين هذه السور الثلاث، حيث بين الله تعالى أن عليكم أن تفهموا توحيد البارئ أولاً، وبعدها سوف ينبع من قلوبكم دعاء كامل يقضي على الشرّ بكل أنواعه.

وليكن معلومًا أن هذه السور الثلاث تشتمل على مضمون سورة الفاتحة، بحيث يخيل لك وكأن الله تعالى قد بدأ القرآن بسورة الفاتحة وختَمه أيضا بها، أعني أن الله تعالى قد أعاد مضمون الفاتحة عند ختام القرآن، شأن الأستاذ الذكي الذي يبدأ الدرس بتلخيصه للطلاب قائلا: اليوم سوف ندرس كذا وكذا، ثم عندما يبلغ النهاية يلخصه مرة أخرى قائلا: قد درسنا اليوم كذا وكذا. فكأن المواضيع التي نبّه

الله تعالى إليها في سورة الفاتحة بصورة موجزة، قد ناقشَها القرآن الكريم مفصلا، ثم عندما بلغ نهايته لخصها مرة أخرى وقال: هذا ما علّمناكم فاحفظوه.

سبب نزولها: هناك ثلاثة أنواع من الروايات بشأن نزول هذه السورة، تقول أوّلها أن مشركين قالوا للنبي ﷺ يا محمد، انسبْ لنا ربّك؟ فأنزلَ الله سورة الإخلاص، فأخبر أنه ليس له أب وليس هو أب لأحد، ولا شبيه له ولا ندّ.

(الدر المنثور)

وقد وردت هذه الرواية بمتون متشابهة، فقيل في بعضها أن أعرابيا سأل النبي ﷺ هذا السؤال، بينما ورد في بعضها أن قريشًا سألتْه إياه.

وبطلان هذه الرواية واضح، إذ من المحال عقلاً أن يثيروا هذا السؤال إلا إذا كان للآلهة التي يعبدونها نسبٌ أيضًا، وحيث إنه لم يكن لها نسبٌ، فكيف يحقّ لهم أن يقولوا للنبي ﷺ انسبْ لنا إلهك. فهذا السؤال من قِبل كفار قريش مستبعد عقلا.

والرواية الثانية تقول بأن يهود خيبر جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، خلق الله الملائكةَ من نور الحجاب، وآدمَ مِن حمأ مسنون، وإبليسَ من لهب النار، والسماءَ من دخان (أي من غازات)، والأرضَ من زبد الماء، فأخبرْنا عن ربك، فلم يجبْهم النبي ﷺ، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فردّ النبي ﷺ على سؤالهم. (الدر المنثور)

والتدبر في هذه الرواية يكشف أن من المحال عقلاً أن يوجّه اليهود هذا السؤال إلى النبي ﷺ، فهم يؤمنون بالله، ويعلمون أنه هو الخالق، فلا يمكن أن يسألوه: مِن أي شيء خُلق ﷻ. أجلْ، كان بإمكانهم أن يسألوا عن صفات الله المختلفة.

ثم من غير المعقول أن يسكت النبي ﷺ عند سؤالهم، إذ كان معظم القرآن قد نزل عندها، وكان بوسعه ﷺ أن يردّ عليهم على ضوء ما نزل منه. فما كان سؤالهم صعبا حتى يلزم النبي ﷺ الصمت وينتظر الرد من الله تعالى. فثبت أن ما ذُكر هنا من شأن نزول سورة الإخلاص باطل عقلاً.

والرواية الثالثة تقول بأن هذا السؤال قد وجّهه نصارى وفد نجران لما وفدوا إلى المدينة، فقالوا للنبي ﷺ: صِفْ لنا ربك، أَمِنْ زبرجدٍ أم ياقوت أم ذهب أم فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء، لأنه خالق الأشياء، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (تفسير الرازي)

وهذه الرواية أيضا لا تصح عقلاً، لأن المسيحيين أيضا يؤمنون بالله. لا شك أنهم يشركون معه ﷻ الإلهَ الابن والإله روح القدس، غير أنهم يعلمون جيدا أن الإله الأب ليس من ذهب أو فضة أو ياقوت أو زبرجد. فتوجيه هذا السؤال من قِبلهم محال عقلا.

إذن، فهذه الروايات كلها عن سبب نزول سورة الإخلاص ظنّيّة فقط، فليس أي من الأسباب المذكورة فيها يستحقّ أن يكون سببًا لنزول هذه السورة العظيمة. الواقع أن الله تعالى قد أعلن فيها عن وحدانيته بشكل موجز لكي يفهمه كل مسلم صغير وكبير ويحفظه، ثم لا يزال يعلنه في كل مجلس. وأغلب الظن أن ورود كلمة ﴿قُلْ﴾ في بدايتها هو الذي جعل هؤلاء يظنون أنها نزلت ردًّا على سؤال، مع أنه ليس ضروريًا أن ترد كلمة ﴿قُلْ﴾ في القرآن الكريم ردًّا على سؤال دائما، بل قد وردت ﴿قُلْ﴾ -على الأغلب- تنبيهًا للنبي ﷺ إلى أن مِن واجبه وواجب كلِّ فرد من أمته أن يظلّ يعلن بين الناس عن الأمر المذكور هناك، ولا يقصِّر في ذلك أبدًا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

هو: الضمير ﴿هُوَ﴾ في هذه الآية هو ضمير الشأن، كأنه قيل: قل: الشأن هذا، وهو الله أحدٌ لا ثاني له.

الله: هو اسمٌ لتلك الذات المقدسة الأزلية الأبدية، الحي القيوم المالك الخالق ورب المخلوقات كلها، وهو اسم ذاتي له ﷻ.. أي أنه عَلَمٌ له ﷻ وليس صفةً. علمًا أنه لا يوجد لهذا الخالق المالك أيُّ اسمٍ ذاتي في أي لغة غير العربية. وهو اسم جامد ليس مشتقا.

أحد: هناك لفظان في العربية لأداء هذا المعنى: الواحد والأحد؛ فقد ورد: "الواحد أوّلُ عدد، يقال: واحد اثنان ثلاثة" (الأقرب). ولكنك تقول "أَحَد" حين لا يكون في ذهنك أيّ تصوُّر عن الثاني والثالث. ويماثله في لغتنا الأردية لفظ (أكيلا).. أي الأوحد، وفي الإنجليزية لفظ: Oneness. وقد ورد في القاموس: "الفرق بين الأَحَد والواحد أن الأَحَد اسمٌ لِمَنْ لا يشاركه شيء في ذاته، والواحد اسمٌ لمن لا يشاركه شيء في صفاته" (الأقرب).. أي أن الأَحد يُستعمل لله تعالى بمعنى التأكيد على وحدانية الله في ذاته.. أي لا تُتصور ذاتٌ أخرى معه، أما الواحد فيُستعمل تأكيدا على وحدانية الله في صفاته.. أي أنه كامل في صفاته ولا يوجد غيره هو كامل في صفاته.

فقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ يعني أعلنْ بين الناس أن الحق والصدق هو أن الله أحد في ذاته.

التفسير: لقد سبق أن ذكرتُ عند تفسير سورة اللهب أن مضمون القرآن ينتهي عندها؛ وعليه فهي آخر سورة قرآنية بهذا المعنى. والبديهي أنه ليس بوسع

كل إنسان أن يفهم معاني القرآن الواسعة ويحيط بها إحاطة كاملة ويحفظها، فاتّبع الله تعالى -تسهيلاً على الناس- أسلوبًا خاصا بأنْ ذكَر ملخص القرآن الكريم عند ختامه وذلك في السور الأخيرة الواردة بعد سورة اللهب، شأن الكاتب القدير الذي يوجز موضوع تأليفه في بدايته، ثم يلخصه عند نهايته أيضا. لقد افتتح الله تعالى القرآن بسورة الفاتحة التي احتوت ملخص مفاهيمه ومطالبه، ثم في النهاية بيّن ملخص القرآن في سور الإخلاص والفلق والناس. لا شك أن سورة الإخلاص في حدّ ذاتها خلاصة القرآن الكريم، فإننا إذا دقّقنا النظر في مضامين القرآن وجدنا أن جوهر القرآن هو إثبات وحدانية الله تعالى وبيان صفاته وعظمته؛ وأيُّ شك في أن سورة الإخلاص قد قامت ببيان كامل لتوحيد البارئ تعالى وصفات الله وعظمته بشكل موجز؟ غير أننا لو أخذنا في الحسبان مضامين هذه السور الثلاث معًا لتبينّ لنا أنها بمنزلة سورة الفاتحة. إذن، فقد استهلّ الله تعالى القرآن بالفاتحة، وختمه أيضًا بها، وكأنه تعالى قال لنا عند ختام القرآن الكريم: ها قد قدّمنا لكم ملَخّصه، فمن واجب كل مسلم الآن أن يستوعب هذا الملخص ويحفظه ويوصي ذريته ألا يبرحوا يعلنون عنه بين الناس إلى أن تجتمع الدنيا كلها على مركز واحد. وتذكيرًا بهذا الواجب قد ابتدأ الله هذه السور الثلاث بقوله ﴿قُلْ﴾.. أي يجب أن تبلّغوا رسالتي هذه إلى الآخرين، ومن واجب هؤلاء الآخرين أن يبلّغوها لمن بعدهم، إذ قيل لهم: ﴿قُلْ﴾، وذلك كما يفعل البعض في هذه الأيام حيث يبعثون رسالة إلى الآخرين قائلين: مَن بلغتْه هذه الرسالة فليبلّغها غيرَه. إذن، فإن الله تعالى قد بيّن في السور الأخيرة ملخص تعاليم القرآن والإسلام وأوصى قائلا: أيها الإنسان، لقد قرأتَ القرآن كله، وهو للعالم كله، فعليك الآن تبليغه إلى الآخرين. ولما كان من المحال أن يستوعب كل إنسان مفاهيم القرآن كلها ويحفظها، فقد لخّصها الله تعالى تسهيلاً على الناس في السور الثلاث الأخيرة قائلا في مستهلّها: ﴿قُلْ﴾.. أيْ مِن واجبك أيها القارئ، أن توصل الآن هذه المفاهيم للآخرين، ومَن سمعها منك فليبلغها مَن بعده، وهلمّ جرّا، إلى أن تصل إلى العالم كله.

إذن، فكلمة ﴿قُلْ﴾ قد ألزمتْ كل مسلم بإيصال هذه الرسالة إلى الآخرين، ولكن ليس أن يبلّغها لهم مرة في حياته، بل يبلّغها في كل مجلس وفي كل مكان. ثم مَن سمعها فليبلّغها الآخرين حتى تنتشر فحوى هذه الرسالة في العالم كله. ولعلّ العادة الموجودة عند بعض المسلمين والمسماة بـ "قُلْ" قد سُمِّيت بهذا الاسم نظرًا إلى قوله تعالى ﴿قُلْ﴾، حيث يجتمعون بعد وفاة قريب لهم ويقرأون القرآن بنيّة إيصال ثواب قراءتهم للميت. أتذكَّر جيدًا أن أحد أقاربنا غير الأحمديين تُوفّي وأنا صغير، فذهبتُ إليهم للعزاء بدعوة منهم، فلما اجتمعوا في المجلس رأيتُ شيخًا ردّد دعاءً، ثم ناولَه أهلُ الميت مصحفًا، فناولَه الشيخُ مَن كان قاعدًا بجنبه، فناوَلَني إياه، وكنت لا أعرف عن هذه الأمور شيئا، ولا أعرف ما إذا كانت تجوز أم لا، وإنْ كنتُ أكره ذلك في قلبي، فأخذتُ منه المصحف ووضعتُه أمامي، إذ لم أعلم ما هو المطلوب مني. فأخذَ أحدهم المصحف من أمامي وناولَه شخصا آخر، أو لعلّه أمرني أن أناوله إياه. فسألتُ أحد الحضور: ما هذه القصة؟ فأخبرَني أنهم ابتدعوا هذه العادة لإيصال ثواب القراءة للميت. لقد فكّروا أنهم لو أخرجوا صدقة لإيصال ثوابها إلى الميت فلن يكون المبلغ إلا قليلاً، وبالتالي يكون ثوابها محدودا، ولا يكفي للتكفير عن ذنوبه، فلمَ لا نتصدق بالقرآن الذي لا يُقدَّر بثمن؟ وتنفيذًا لهذه الفكرة يناول أحدهم الجالسَ بجنبه المصحفَ قائلا للميت: أعطيتُك هذا القرآن. وهكذا كل واحد منهم يناول صاحبَه المصحفَ ويتصدق بالقرآن للميت، ظنًا منه أن هذا سيكون كفّارةً لذنوبه. فكما قلت: لعلّ هذه العادة سُميت بـ "قُلْ" لأن المصحف الذي يتصدقون به ينتقل من واحد إلى آخر.

لو أن المسلمين عملوا بما أوصاهم الله به في كلمة ﴿قُلْ﴾ لما بلغوا من الذل والهوان ما بلغوه في هذا العصر، ولكان العالم كله تحت قدمي المؤمنين بوحدانية الله ورسالة محمد رسول الله ﷺ. كم كان العمل بهذه الوصية سهلاً! ولكن المسلمين أهملوها. لقد قال رسول الله ﷺ للمسلمين في حجة الوداع: "إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ." (البخاري: كتاب الحج). وكنتُ قد نصحتُ أفراد جماعتنا

ذات مرة أن مَن يسمع هذه الوصية النبوية فعليه أن يوصلها إلى غيره، لأن هذا أمرُ الرسول ﷺ. والحق أن هذه الوصية النبوية تماثِل ما أمَرنا الله تعالى به في قوله ﴿قُلْ﴾، لأنها إذا وصلت من واحد إلى الآخر، خلقتْ بين القوم صحوة.

باختصار، لقد قال الله تعالى في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ أيها المسلم المؤمن بذاتنا وكلامنا ولا سيما بقرآننا، إننا نأمرك أن تذهب وتعلن بين الناس أن فحوى تعاليم الإسلام هي أن الله أحد.

لقد أشرتُ من قبل أن هذه السور الثلاث الأخيرة تشتمل على مضمون سورة الفاتحة، وبيانه كالآتي: فقول الله تعالى في هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يحتوي على ما ورد في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، لأن هذه الآيات تعلّم التوحيد الكامل والتوكل الكامل. والحق أن التوكل الكامل هو نتيجة التوحيد الكامل؛ ذلك أن الإنسان إذا أدرك أن كل ما سوى الله زائف وباطل، فلن يثق بغيره تعالى أبدا. ذلك أن المرء إذا مرض، وكان في القرية أكثر من طبيب، فهناك طبيب يعالج حسب الطب الغربي، وطبيبُ أعشاب وطبيب هوميوباثي، فهذا المريض يذهب إلى الطبيب العادي مثلاً، وإذا لم يُشف من دوائه يذهب إلى طبيب الأعشاب، وإذا لم ينفعه دواؤه يتوجّه إلى الطبيب الهوميوباثي، وإذا كان هناك أطباء كثيرون في تخصص واحد، فإنه يتوجه من واحد إلى آخر ثم ثالث، ولكن إذا لم يوجد هناك أي طبيب، فلن يتوجه إلى أحدهم. فثبت أن قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ تعلّم التوحيد الكامل. ويمكن القول أيضًا إن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعلّم التوحيد الكامل، أما قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيعلّم التوكل الكامل. وهذا هو فحوى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أيضا. فالأَحَد مَن لا يوجد سواه، والله تعالى واحدٌ وأَحَد؛ إنه واحد بمعنى أنه منبع المخلوقات كلها، وإنه أَحدٌ بمعنى أن كل الأشياء تختفي أمامه.. أي لا تساوي مقابله شيئا. وهذا هو معنى قوله

تعالى ﴿الحَمْدُ لِلّهِ﴾.. أي أن بعض الناس يقول مثلا: إن هذا الأمر كان بفضل أبي، أما نحن فنقول: إننا لا نرى أحدًا سوى الله، ولذا نقول: الحمد لله. ويقول البعض: إن هذا كان بفضل أستاذي، أما نحن فنقول: نحن لا نرى أستاذًا إلا الله، فنقول: الحمد لله. ويقول البعض: إنما كان هذا بفضل جاري، أما نحن فنرى أن المِنن كلها من عند الله تعالى ولا نرى سواه، فنقول: الحمد لله. فثبت أن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ يتضمن مفهوم قوله تعالى ﴿الحَمْدُ لله﴾.

والمفهوم نفسه يوجد في قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، أي: لا نرى قبْله أَحَدًا ولا بعده أَحَدًا.

أما قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهو أيضا بالمفهوم نفسه. فهو ردٌّ على قائل يقول: ما دام ما سوى الله موجودًا، فكيف يقال أننا لا نرى شيئًا سوى الله. فأجابه الله تعالى: صحيح أن هناك ما سوى الله من الموجودات، ولكن لا أحد منها كفوٌ له تعالى، بمعنى أنه يعطيك كلَّ شيء مِن عنده، أما الآخرون فإنما يعطونك مما أعطاهم الله لا من عندهم، وكل ما سوى الله ﷻ من المحسنين إليك، فليسوا إلا وسائط بينك وبين الله؛ فما يضع الله في يدهم يوصلونه لك. فهو الله الذي يخلق اللبن في ثدي الأم التي تصبح واسطةً لنقله إلى ولدها، وهو الله الذي يعطي الأب المال، فينفقه على أولاده. فثبت أن موضوع ﴿الحَمْدُ لله﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ واحد.

أما قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقد تضمّنَ مفهومَه قولُه تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، لأن الصمد هو من لا يحتاج لأحد، والجميع يحتاجون إليه، وهو يسدّ حاجاتهم أيضا. فقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أشار إلى احتياج الجميع إلى الله، وقوله تعالى ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أشار إلى أن الله تعالى يعين الجميع ويحقّق مرادهم. وما دام ليس هناك مَن يقدر على سدّ حاجات الناس سوى الله تعالى، فالجميع مضطرون للعودة إليه ﷻ. فثبت من هنا أن سورة الفاتحة والإخلاص تشتركان في المعنى.

إن سورة الإخلاص –مع إيجازها– تبيّن التوحيد الكامل، حيث بيّن الله تعالى فيها ثلاث حقائق:

١: أن الله حق.

٢: أنه فريد في ذاته، بمعنى أنه أَحَدٌ، وليس هناك إلهانِ أو ثلاثة.

٣: أنه واحد في صفاته، أي لا ندَّ له فيها.

يقول الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.. أي: قُلْ إنكم تقدّمون عن الله تعالى شتى الأقوال والأفكار والنظريات والفلسفات، ولكن الأمر اليقين الأكيد عنه تعالى إنما هو: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾.. أي أنه وحيد فريد في ذاته بكل معنى الكلمة، لا بداية لـــه ولا نهاية، لا مثيل له ولا هو شبيه لأحد.

اعلمْ أن لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ ذو خصوصية عجيبة، إذ لا يوجد معه مفهـــوم الـــشيء الثاني، بينما يوجد مفهوم الثاني مع كل الأرقام الأخرى حتى الواحد والأول أيضا. فالواحد يعني الأول بالنظر إلى الآخر، والنسبة تستلزم مفهومَ الثاني بعـــده، وإلا لا يمكن أن يوجد هناك معنى النسبية؛ إذ لا نستطيع أن نقول اليمين من دون فكـــرة اليسار، ولا يمكن أن نقول الشَّمال من دون فكرة الجنوب، أما الأحد فينفي وجود الثاني معه كليةً، إذ لا يُتصوَّر معه الثاني، وأداء هذا المفهوم بلفظ آخر مـــستحيلٌ. فصفة "الأحد" تُنـــزِّهُ الله تعالى عن المخلوقات كلها. والحق أن عظمة الله تعالى إنما تتجلى في أحديّته، لأنه كلما نزل الله تعالى للتعلّق مع مخلوقه فلا بد أن تبدو صفاته محدودةً، شأن الشمس التي يبلغ قُطرها ٨٠٠ ألف ميل (الموسوعة البريطانية تحـــت: Sun)، ولكنها تبدو صغيرة للعيون كونها بعيدة؛ أما إذا اقتربت كثيرًا فلن تقـــدر على رؤيتها، فكما أن الشمس إذا لم تظهر للعيون أصغرَ من حجمها، فلن تقـــدر على رؤيتها لكون العيون محدودة القدرة، كذلك فإن الله الذي صفته الأحد –وهي صفته الأساسية العظمى– عندما يتجلى على العباد فإنما يتجلّى بتجلٍّ ضئيل يستطيع العباد رؤيته؛ ولا شك أنه تجلٍّ غير كامل. فثبت أنه ليست هناك صفة من صفات الله تعالى أدلَّ على عظمته من صفته الأحد.

والواقع أن الله تعالى ربٌّ من منظورين: فهو ربٌّ مِن منظورِ أَحَدِيّته، وربٌّ من منظور مخلوقه، أما ربوبيته من المنظور الأول فهي أعظم من أن يقدّرها أحد، وأما ربوبيته من المنظور الثاني فهي محدودة. كذلك فهو رحمان من منظورين، فرحمانيته

التي تتعلق بأحديته تفوق التصوّر والتقدير، أما رحمانيته المتعلقة بعباده فيمكن أن يلمسها كل عاقل. والحال نفسه بالنسبة إلى مالكيته وعلْمه. مما يعني أن صفاته المتعلقة بالعباد محدودة، أما صفاته المتعلقة بأحديته فغير محدودة؛ ولعدم فهْمِ هذا الفرق بين هذين الأمرين قد وقع جدال كثير بين الناس، فقال بعضهم أن الله لا يُرى، وقال غيرهم: بل إنه يُرى، مع أن كلا الفريقين مصيب فيما يقول. فمَن قال إن الله يُرى، فإنما قال ذلك نظرًا إلى تجلّي صفاته المتعلقة بعباده، أما مَن قال إنه ﷻ لا يُرى، فإنما قال ذلك نظرًا إلى صفاته المتعلقة بأحديته. فالحق أن الله تعالى لا يُرى ما لم ننظر إليه من منظور الصفات المتعلقة بعباده، فمَن قال إنه قد رأى الله تعالى، وهو يعني أنه قد رأى صفاته من منظور أَحَدِيّته، فقد أخطأ، إذ ورد في الحديث أن عائشة –رضي الله تعالى– سألت النبي ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: نورٌ أَنَّى أراه؟ (مسلم، كتاب الإيمان)، أما الذي قال إن الله تعالى لا يُرى في أيّ تجلّياته فهو مخطئ أيضا. الواقع أن كلا الفريقين يتكلم من وجهة نظر مختلفة.

باختصار، إن أحدية الله تعالى نوعان: أحدهما ما لا نستطيع إدراكه إلا بأسلوب النفي، ولذلك قال الله تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾.. أي: هو الذي يستحيل أن يعمل الإنسان من دون الاستعانة به شيئًا. وكأنه تعالى يتحدث هنا عن أحديته المتعلقة بالعباد، فيقول: أنا ذلك الإله الذي لا تستطيعون فعْل شيء من دون عونه ونصرته، فالإعراض عن بابي لن ينفعكم شيئا، وإذا توجهتم إلى غيري لسدّ حاجاتكم فاعلموا أن الجميع محتاجون إليَّ، فمن الغباء أن يؤْثر الإنسان الكأس على الينبوع، فأنا ذلك الينبوع الذي يملأ الناس منه كيزانهم. فما دام الواقع أن كل ما تجدونه إنما تجدونه مني، فلماذا لا تتقربون إليّ وإيايَ تسألون؟

لقد سبق أن ذكرنا عند شرح الكلمات أن من صفات الله الأحد والواحد، وبينهما فرقٌ؛ ذلك أننا إذا قلنا واحد، فلا بد من الإقرار بوجود الثاني والثالث والرابع وهلمّ جرًا، فكأننا نقرّ أن الأشياء الأخرى قد نبعت منه سبحانه وتعالى. وكما أن الأرقام ٢ و٣ و٤ وغيرها تنبع كلها من الواحد، كذلك كل ما في الكون قد خرج من عند الله تعالى، وكل شيء بحاجة إلى الله لبلوغ كماله. وكما أنه لا

نور من دون ضوء الشمس، كذلك من المحال أن يوجد شيء آخر من دون فضل الله وعونه. هذا هو مفهوم كون الله واحدا.

أما صفة الأحد، فمفهومها أن الله أحد فريد في ذاته. فالأحد يفيد النفي بنوعين، أحدهما أنه تعالى لم يصبح من الاثنين واحدًا، والثاني أنه لا يمكن أن يكون من الواحد اثنين. أما الواحد فيمكن أن يكون اثنين إذا عددنا تصاعديا، ويمكن أن يكون من الاثنين واحدا إذا عددنا تنازليا، إذ يوجد بين الله تعالى وغيره من المخلوقات نوع من الاشتراك فيما يتعلق بصفات الله تعالى، حيث نجد في الأشياء الأخرى انعكاسًا لصفاته إلى حد ما، مما يعني أن قولنا: إن الله واحد، إقرار منا بوجود أشياء أخرى معه تعالى. أما لفظ الأحد فلا ثاني معه، لأننا نقول: واحد اثنان ثلاثة، ولا نقول: أحد اثنان ثلاثة. إذًا، فالمخلوق مشترك مع الله تعالى في صفاته إلى حد ما، ولكنه ليس مشتركًا معه في ذاته؛ فمثلاً: إن الله يسمع، ونحن أيضا نسمع نتيجة انعكاس صفاته هذه علينا. يقول بعض الجهلة أن قولنا بأن الله يسمع ونحن نسمع أيضا قولٌ فيه شرك ووثنية، والحق أنه ليس فيه أي شرك، لأن قدرتنا على السمع إنما هي انعكاس لصفة الله السميع. المهم أننا عندما نقول إن الله واحد، فكأننا نقرّ بوجود مخلوقات أخرى تعكس صفات الله تعالى بعونه وقدرته، لأن هناك ٢ و٣ و٤ و٥ بعد الواحد في العد التصاعدي، أما إذا عددنا تنازليًا فنرجع إلى الواحد مرة أخرى، ولكن لفظ الأحد يدلّ أننا لا نستطيع أن نعدَّ أكثر منه فلا نقول: ٢، ٣، ٤، ولا يمكن أن نرجع من الأكثر إلى الأحد.

والحق أن هذا هو أساس الخصام، فكثير من الأمم تقول بأن الله اثنان أو ثلاثة أو أكثر، ثم يرجعون من الكثرة إلى الوحدة ويقولون إنه واحد، كما هو حال المسيحيين الذين يقولون إن الأب والابن وروح القدس كلهم صاروا واحدا. ولكن سورة الإخلاص تبيّن أن هذه الأقانيم الثلاثة إن دلت على وحدانية الله تعالى فإنها لا تدل على أحديته التي يقتضيها التوحيد الكامل. ولما كان من المقدر أن يتفاقم خطأ عقيدة الثالوث في الزمن الأخير خاصة، فنبّه إليه القرآن الكريم عند ختامه وقال ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.. أي قُلْ إن الله فريدٌ أحد، فلا يمكن أن ينشأ من هذا

الأحد ابن ولا روح قدس، كما لا يمكن أن يصير هؤلاء الثلاثة واحدا. من المحال أن يتنوع هو ﷻ، أو يرجع من التنوع إلى الأحد. باختصار، قد أنزل الله تعالى سورة الإخلاص لإثبات أحديته تعالى في الزمن الأخير خاصة.

في هذه السورة الوجيزة، إذ برهن الله على وجوده تعالى، فإنه قد استأصل الشرك كلية أيضًا. والشرك نوعان: أحدهما الاعتقاد بوجود آلهة عديدة وإن كان بعضها أكبر من بعض، وثانيهما: اعتبار كل ما سوى الله مخلوقًا، مع إعطاء بعض هذه المخلوقات درجةَ الألوهية. فالنوع الأول هو شركٌ في ذات الله، والنوع الثاني هو شركٌ في صفات الله، وقد فنّد الله تعالى بقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عقائد كل أولئك الذين يؤمنون بإلهين أو ثلاثة، أو يتخذون له ابنًا أو بنات، أو يعبدون الأصنام. فبقوله تعالى أولاً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم بقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ثم بقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قد بين الله تعالى أن الذين يشركون الأشياء الأخرى في صفات الله هم على الباطل، فإن الإنسان مهما كان عظيمًا فهو محتاج إلى الله تعالى في كل حال، إذ من المحال لمخلوق أن يبلغ درجة الله، ولا أن يشترك في فعله تعالى.

ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

الصَّمَد: هو السيّد الذي لا يُقضى دونه أمرٌ؛ الدائمُ؛ الرفيع (الأقرب).

وفي المفردات: "الصَّمَدُ: السيّدُ الذي يُصمَد إليه في الأمر."

التفسير: كان قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ دعوى، وقد أتى عليها الآن بالدليل فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. والصمد مَن لا يحتاج إلى شيء، وكلُّ شيء محتاجٌ إليه.

يظن المفسرون أن قوله تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ قد جيء به للسجع فقط. وهذا زعم باطل، والواقع أن كل آية في هذه السورة جاءت دليلاً ساطعًا على مضمون

الآية السابقة. لقد أعلن الله تعالى في الآية السابقة أنه أَحَدٌ فريد، والآن قد دلّل على ذلك بقوله ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾.. أي: ما دام كل شيء محتاجا إلى الله تعالى، وما دام سبحانه تعالى يحقّق لنا مرادنا، فأيّ حاجة إلى ربّ سواه؟ إن الاعتقاد برب سوى الله تعالى، يستلزم القول إنه إله عبث -والعياذ به- والعابث لا يكون إلهًا أصلا، فالماء العابث أو الهواء الرديء لا قيمة له، كذلك لا قيمة للإله العابث. إن الله تعالى هو خالق الأشياء كلها وهو يسد حاجات الجميع، وعليه، فالتوجه إلى غيره لسد حاجاتنا عبثٌ ولغوٌ. فثبت من ذلك أن قوله تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ قد جاء دليلاً على أحدية الله تعالى.

رُبَّ قائلٍ يقول هنا: القول بأن الله ليس بحاجة إلى أحدٍ إنما هو دعوى دليلها ليس بظاهر أمام الناس، لأن الله لا يُرى بهذه العيون المادية.

ولا يمكن الردّ على هذا السؤال إلا بطريق واحد، وهو أن نبرهن على أن كل ما سوى الله تعالى محتاج إلى غيره، فيتبين تلقائيا أن الله تعالى ليس محتاجا لأحد. ومن الحقائق الجلية جلاء الشمس في كبد السماء أنه ليس في الدنيا شيء هو كامل في ذاته، بل كل شيء بحاجة إلى أشياء أخرى من أجل بقائه. فكل ذرة في الكون تؤثر في الذرة الأخرى، فحينًا يؤثر فيها النور وحينًا الأثير (Ether) المكتشف حديثا، والإنسان الذي يُعتبر أكمل مخلوق فهو محتاج إلى الماء والغذاء، والشمس بحاجة لبقائها إلى أشياء أخرى من غازات وكواكب ونجوم وغيرها، وأما الأرض فهي بحاجة لبقائها إلى أشياء كثيرة من هواء وأثير وجاذبية الكواكب والنجوم الأخرى. فكل شيء -مهما كان كبيرًا وضخمًا- بحاجة إلى غيره، وهذا الاحتياج دليل على أن الكون ليس قائما بذاته، بل هناك مَن يديره ويحافظ عليه، لأن المحتاج إلى غيره لا يكون خالقًا لنفسه، ولا يكون أزليًّا.

قد يقول قائل هنا: إن احتياج الأشياء بعضِها إلى بعض قد اكتُشف حديثًا، فلعلّ البحوث في المستقبل تؤكد أن الكون بمجمله ليس بحاجة إلى أحد من أجل بقائه!

والجواب: أولاً: لعل البحوث المستقبلية تؤكد بشكل أكبر أن الكون بحاجة إلى أحد لبقائه، وهكذا يتضح أكثر أن هناك خالقا له. فهذا الاعتراض لا قيمة له؛ فكم مِن مرة قد تغيّرت البحوث والاكتشافات، ولكنها لم تخالف هذه الحقيقة في أي مرحلة، بل أكدتها دائما، فتأكيد كل بحث جديد لها دليلٌ على أن البحوث التالية أيضًا لن تبطلها بل تؤكدها أكثر. ومع ذلك لو افترضنا جدلاً أن هناك ذرة هي كاملة في حد ذاتها، فأيضا سيبقى هناك حاجة إلى مَن خلقها على ما هي عليه. غير أنه من المحال عقلاً أن توجد أية ذرة كاملة في حد ذاتها، إذ لا يتصف بهذه الصفة إلا مَن يملك الإرادة والقدرة المطلقة.

ثم هناك سؤال آخر وهو: إن المادة التي تُعتبر مكتملةً في حد ذاتها يستحيل أن تغيِّر شكلها، لأن التغير يحدث بالتركيب والتفاعل مع شيء آخر، ولا يتفاعل مع شيء آخر إلا ما هو غير مكتمل، أما الشيء المتكامل فلا يقبل التغير ولا يمكن أن يتفاعل حقيقةً مع شيء آخر، إنما مثل تفاعُله مع شيء آخر كمثل خلط السكر بالماء، فإذا جَفَّ الماء عاد السكر إلى حاله. فإذا كان هناك ذرة أو مادة كهذه في الواقع، فلا يمكن أن يُخلق منها هذا الكون، لأن هذا الكون هو محلٌّ التغيرات التي لا نهاية لها.

باختصار، إن التدبر في كائنات العالم يكشف جليًا أن كل شيء هنا عرضة للتغير، وبحاجة إلى شيء آخر لبقائه، لذا فلا بد من التسليم بأن هناك مَن خلق هذه الأشياء المحتاجة وأخضعَها لقانون.

يقول البعض هنا: إن الكون يُدار بقوة خفية.

ولكننا نسأل: هل هذه القوة الخفية ذات إرادة أم لا؟ إذا كانت بلا إرادة فهي مخلوقة من أشياء أخرى، لأن كل قوة في الكون تتولد بحركة الأشياء الأخرى أو بتركيب بعضها ببعض، أما إذا كانت هذه القوة الخفية ذات إرادة، فقد ثبتت دَعْوانا؛ إذ نحن أيضا ندعو إلى الاعتراف بقوة كهذه.

باختصار، قد قدّم الله في قوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ دليلاً رائعًا على وجوده.

ومن معاني الصمد الرفيعُ، وعليه فقوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني أن تلك الذات التي تتميز بالأحدية هي رفيعة الدرجات وغير محدودة، وهي أسمى من القياس. وكأن الله تعالى يخبرنا أنكم مهما صعدتم في تحليقكم إلى الله، فهو تحليق محدود لأن إلهكم رفيعُ الدرجات وغير محدود، وسبل قربه غير محدودة، فمهما صعد أحد فهو سيظل دونه، وليس هناك مقام يقول الواصل إليه إن رحلته إلى الله قد انتهت.

ومن معاني الصمد التي وردت في التفاسير: الغنيُّ، أي: مَن لا يحتاج إلى أحد. ولكن هذا المفهوم يؤدي مفهوم الصمد بشكل ناقص، لأن معنى الصمد مزدوج.. أعني أنه يعني: مَن لا يحتاج إلى شيء، وكلُّ شيء محتاجٌ إليه. فثبت أن الغنيّ لا يؤدي مفهوم الصمد تماما، وإنما يؤدي نصف مفهومه. إن الصمد يماثل الرحمن معنى، لأن الرحمن يعني مَن يقوم بربوبية المخلوق من دون عمل منه، فإذا قلنا إن كل شيء محتاج إلى الله تعالى، فهذا يعني: أن الجنين في رحم أمه أيضا محتاج إليه وهو الذي يقوم بربوبيته في الرحم، وأن الغنم والإبل والخيل كلها بحاجة إليه تعالى وهو الذي يسدّ حاجاتها كلها، وأن الآثم أيضًا بحاجة إليه، لأن رحمانيته تربّيه، وهكذا تبطل عقيدة الكفارة والفداء. ولعدم فهْم هذا الأمر قد اختُرعت عقيدة التناسخ الهندوسية التي تفنّدها أيضًا هذه الآيات. ثم عندما نقول إن كل شيء محتاج إلى الله تعالى، فهذا يعني أن ذرات الشمس والقمر والنجوم والأرض بحاجة إلى الله تعالى، فكل شيء –مفردا كان (وهو ما يُسمّى في المنطق بسيطا) أو مركبا– فهو محتاج إليه تعالى، وبالتالي فهو ﷻ خالقُ المادة والناس والروح أيضًا. فثبت من ذلك أن الصمدية تتضمن الرحمانية.

الحق أن التوحيد منبع الرحمانية؛ إذ لولا التوحيد لما كانت هناك رحمانية. وخير مثال على ذلك أن الأمم التي لا تؤمن بالتوحيد، لا تؤمن بالرحمانية أيضا، فالهندوس المنكرون للتوحيد، ينكرون رحمانية الله أيضا، إذ يؤمنون أن الإنسان لا بد أن يعاقَب على ذنوبه، ولا يمكن أن يغفرها الله له. كذلك المسيحيون لا يؤمنون بالتوحيد، ولذلك يؤمنون بضرورة الفداء لغفران ذنوب العباد. فلا خفاء ولا مِراء في أن الأمم المنكرة للتوحيد تنكر الرحمانية أيضا، وأنه بقدر ما تكون مؤمنة

بالرحمانية، تكون مؤمنة بالتوحيد أيضا، وكلما ابتعدت عن التوحيد ابتعدت عن الرحمانية أيضا، فنجد اليهود يؤمنون برحمانية الله إلى حد ما في هذا العصر، وسببه أنهم يؤمنون بالتوحيد أيضا إلى حد ما. أما الأديان الأخرى فلا تؤمن بالرحمانية ولا بالتوحيد.

لقد أعلن الله تعالى في بداية سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.. أي أن الله فريدٌ، وفيوضه جارية مستمرة، وأن كل شيء ينتفع برحمانيته ومحتاج إليه. وكأن الله تعالى قد ذكر هاتين الآيتين معًا، ليبين أن التوحيد والرحمانية متلازمان، وأن الصمدية تتضمن الرحمانية، مما يدل على أن الله أحد.

ومن معاني الصمد الدائمُ، أي الأبدي. وقد بين الله تعالى بذلك أنه حق، وأنه أحد، وأنه منذ الأزل وسيظل إلى الأبد. لم يكن قبله أحد ولن يكون بعده أحد، بل هو الأول والآخر.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٤﴾

التفسير: لقد أعلن الله تعالى في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أنه تعالى حق، ولكنه أحد، ثم برهنَ على هذه الدعوى بقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.. أي أن الدليل على وجوده تعالى أنه ليس في الكون شيء هو كامل في حد ذاته، بل كل شيء بحاجة إلى الأشياء الأخرى، إنما الله وحده الذي لا يحتاج إلى شيء. فاحتياج كائنات العالم كلها دليل ساطع على وجود البارئ تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وهذا دليل على صمديته تعالى، حيث بيّن أن الاحتياج يكون لسببين: العلاقات الابتدائية (السابقة)، والعلاقات المستقبلية. والمراد من العلاقات الابتدائية أن يتسبب شيء في وجود شيء من العدم. والشيء الذي وُلد وظهر من العدم إلى الوجود بسبب شيء آخر، لا بد أن يكون محتاجا؛ إذ لولا ذلك المسبب لما وجد هذا الشيء. أما المراد من العلاقات المستقبلية فهو أن يكون لذلك الشيء أولاد، لأن وجود الأولاد دليل على حاجة ذلك الشيء إلى

الأنثى، بل دليل على فنائه، لأننا نرى في الدنيا أن الشيء الذي يحقق الغاية مِن خلقه قبل انقراضه، لا يكون له أولاد؛ خذوا مثلا الشمس والقمر والجبال والأنهار والأرض وغيرها، فإن هذه المخلوقات باقية لا تفنى إلى أن تحقّق الغاية من وجودها، ولذلك لا نرى لها نسلاً ولا أولادا، أما الإنسان والحيوان والنبات فتفنى قبل تحقيق الهدف من خلقها، ولذلك يكون لها نسل وأولاد. فثبت أن مَن لم يكن له أب ولا ابن فهو غير فانٍ، وأنه مكتمل في ذاته وأنه أحد.

فبقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قد نفى الله تعالى العلاقاتِ بنوعيها، وهذا دليل على صمديته من ناحية وعلى أحديته من ناحية أخرى. وكأن هاتين الآيتين معًا تشكّلان برهانًا على الدعوى التي وردت في الآية السابقة.

ثم دفع الله تعالى بقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ شبهةً قد تساور أحدًا هنا بشأن صفته الصمد، فيقول: لو سلّمنا جدلاً أن لا شيء يمكن إنجازه من دون عون الله تعالى، ولكن ألا يمكن أن يفقد الله قدرته في يوم من الأيام؟ إذ نرى في الدنيا أن بعض الناس يملكون سلطة بلا حدود، ثم يُسلَبونها في النهاية، فيصبحون مقهورين ذليلين تماما. ألا يمكن أن يحدث هذا مع الله تعالى؟

قال الله تعالى ردًّا على ذلك: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.. أي: لو كانت قدرته عُرضةً للفناء لوُجد مَن ينوب عنه، ولكنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ولدًا، والشيء لا يكون في غنى عن النسل والأولاد إلا إذا كان باقيًا حتى تحقيق غايته. فقوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أكد أنه لا نهاية لقدرة الله وقوته، وأن صمديته قائمة إلى الأبد.

وهناك أمر آخر جدير بالانتباه هنا، وهو أن الله تعالى قد قدَّم قوله ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وأخَّر قوله ﴿ وَلَمْ يُولَدْ﴾، مع أن ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يدلّ على الأبدية، وقوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يدل على الأزلية، والأزلية قبل الأبدية، فلماذا عُكس الترتيب؟

والجواب: أن الأزلية لا يمكن أن يعلمها أحد، لأن الإنسان وُلد بعدها بكثير، وإنما يمكن أن يعلم الأزلية من خلال الأبدية. وحيث إن تاريخ العالم يدل دلالة واضحة -أولاً- على أن الدنيا لم تُحرَم من عون الله تعالى قط، وأنه -ثانيًا- لم

يكن له ولدٌ قط، فثبت أنه أبديّ، وبالتالي فهو أزلي حتمًا؛ إذ من المحال أن ينجو أحد من الفناء في المستقبل إلا إذا نجا من عيب الولادة في الماضي.

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝

شرح الكلمات:

كُفُوًا: الكُفؤ: المماثِل يقال: هذا كُفؤه أي مماثله (الأقرب).

وفي "المفردات": "الكُفْءُ في المنزلة والقدر."

فالكفء هو النظير والمماثل في الدرجة.

التفسير: قال المفسرون إن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قد جاء إعادةً وتأكيدًا لما ورد في الآية السابقة. وهو قول غير سليم؛ وإنما الواقع أنه جاء درءًا لشبهة، وذلك أنه حتى وإذا كان هناك مَن صفته أنه لم يولد و لم يلد، إلا أنه تظل هناك شبهة بأنه قد يكون هناك كائن بهذه الصفات، فقال الله تعالى بأن الأمر ليس هكذا؛ إذ ليس الله ابنًا لأحد وليس له ابن، بل لا نظير له ولا مُشابهَ أيضا.

أما السؤال: ما هو دليل على أنه لا نظير له ومماثل، فهو قول الله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٣).. أي لو كان هناك إلهانِ مماثلان لفسدت السماوات والأرض، لأن وجود إلهين متماثلين (متساويين) يعني أن أحدهما عاطل، إذ لو كانا متساويين في عملهما فما الداعي لوجود الآخر؟

فقوله تعالى ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يعني أن غاية خلق السماوات والأرض ستصبح عبثًا. هذا أولاً. وثانيًا: لو وُجد إلهانِ متماثلان متناظران لعمِلا بخطتين متوازيتين، ولانضمّ جزء من الكون إلى أحدهما، والجزء الآخر إلى الآخر، ولكن الواقع يبطل هذا، إذ نجد في الكون كله قانونا واحدا، فالقانون الذي يعمل على الشمس هو نفسُه يعمل على الأرض وما وراءهما من أجرام وكواكب وغيرها. فما دام القانون الجاري في الكون واحدا، فثبت أنه ليس هناك إلهان متماثلان في القوى والقدرات.

ثم إن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يكشف حقيقة أخرى بأسلوب رائع، وهي: مع أن العباد يتصفون بصفات مشابهة لصفات الله تعالى، إلا أنه من المحال أن يكون له ندّ ومثيل في صفاته، لأن الناس لا يتصفون بتلك الصفات اتصافًا يجعل أحدًا منهم كُفوًا لله تعالى. فعلى سبيل المثال إن الإنسان يُبصر ويسمع، ولكن سمعه وبصره محدود وناقص بحيث لا مقارنة بينه وبين الله تعالى فيهما. والحيوان يشبه الإنسان في الرؤية والأكل والمشي، ومع ذلك فلا يمكن أن يُعتبر كفوًا وندًّا للإنسان، لأن الإنسان ينجز ببصره وفمه ورجليه ما لا ينجزه الحيوان بها، فالإنسان يرى بعينه الأشياء ويقدِّم نظريات جديدة بناء على ما رأى، ولكن الحيوان لا يستطيع ذلك، والإنسان يأكل بفمه ولكنه يحرص على ألا يأكل ما يضرّ صحته، أما الحيوان فلا يفعل ذلك، والإنسان يمشي برجله مثل الحيوان، ولكنه يمكن أن يستعمل بقدميه الدوّاسة فيسوق بها الدرّاجةَ وبعضَ أنواع القوارب، لكن الحيوان لا يقدر على ذلك، لأن حركة قدميه محدودة، فلا يمكن أن يكون كفوًا للإنسان. هذا ما يبيّنه الله تعالى هنا، ويقول بأن سمع الله وبصره لا يمكن أن يقاسا بسمع الإنسان وبصره، إذ شتان بينهما؛ فإن الله تعالى يرى ما وراء الوراء ولا تخفى عليه خافية، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يرى ما وراء الجدار. كذلك إذا تكلم الإنسان سمِعَه الآخرون، ولكن الله تعالى لو كلّم رسوله في مجلس لم يستطع مَن حوله سماع كلامه، فيخبرهم سِرَّ السرِّ وأخفى الأخفى، من دون أن يعرف الآخرون. فثبت أن الإنسان لا يمكن أن يكون كفوًا لله رغم كونه يسمع ويُبصر. وهكذا دفع الله تعالى الشبهة الناشئة بوجود التشابه بين صفات الله وصفات الإنسان.

لقد بيّنت من قبل أن هذه السورة قد أنزلها الله تعالى للقضاء على الفتن المروعة التي كانت ستنشأ في الزمن الأخير من إلحاد ومسيحية منحرفة، وللتدليل على وجوده ﷻ وأحديته ولجمْعِ الأمم على مركز واحد. كانت الأمم قبل بعثة النبي ﷺ تدعو الله بأسماء مختلفة، مثل (God) و(بَرْمَيشور) و(يَزْدان) و(إلوهيم)، وكانوا يظنّون لجهلهم أن فلانًا إلهُ الهندوس، وفلانا إلهُ الزرادشتيين، وفلانا إلهُ اليهود، وفلانا إلهُ النصارى، بل لقد ورد في كتب بعضهم أن إلههم "برميشور" أو إلههم

"إلوهيم" يأمرهم بكذا أو كذا؛ مما يعني أن الناس اعتبروا الله تعالى إلهًا قوميا، إلى أن كشف الله عليهم بواسطة النبي ﷺ اسمه الذاتي -وهو ﴿الله﴾- وأخبرهم أن هذه الأسماء المختلفة من برميشور ويزدان وإلوهيم وغيرها كلّها تشير إلى الله، وإلا فإن الإله واحدٌ أحدٌ، واسمه العَلَم ﴿الله﴾. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(لقمان:٢٦)، ولا يعني ذلك أنهم سيذكرون اسم الله عند الجواب، بل المراد أنهم بأيّ اسمٍ دعوْه فيكون ذلك إشارةً إلى الله تعالى. فالحق أن الإله واحد، وهو خالق السماوات والأرض، وإنْ سمّاه الهندوس بيرميشور والنصارى (God). إنه تعالى ليس إلهًا قوميا، بل هو رب العالمين، وكل الأمم تؤمن به باسم أو بآخر.